فرنان بروديل مؤرخ «المتوسط والعالم المتوسطي»: الصحراء، البدو، والإسلام قطب المتوسط التاريخي

إعداد مروان أبي سمرا

يُعتبر مؤلف «المتوسط والعالم المتوسطي»، باكورة أعمال المؤرخ الفرنسي الراحل فرناند بروديل(*). مرجعاً أساسياً لتاريخ العالم المتوسطي بل ولعلم التأريخ في مجمله. وإن درجت تسمية هذا المؤلف الموسوعي الضخم (١٢٠٠ صفحة في جزئين) والفريد في مجاله بـ«متوسط بروديل»، فمرد ذلك إلى استحالة

(*) ولد فرنان بروديل Fernand Braudel في العام ١٩٠٢ وتوفي في باريس عام ١٩٨٥. في العام ١٩٢٣ بدأ بإعداد أطروحة جامعية حول سياسة ملك إسبانيا، فيليب الثاني، في النصف الثاني من القرن السادس عشر. وفي أثناء انكبابه على البحث مدة عشرين عاماً توصل إلى وضع مؤلفه التاريخي الكبير «المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني» الذي صدر بالفرنسية عام ١٩٤٩. وفي العام ١٩٩٠ صدرت الطبعة الفرنسية التاسعة من هذا المؤلف الموسوعي الضخم (١٢٠٠ صفحة في جزئين)، بعد أن ترجم إلى لغاتٍ عدة: الانكليزية، الإيطالية، الإسبانية، البولونية، البرتغالية، اليونانية، الألمانية، التركية... ومؤخراً صدر «المتوسط والعالم المتوسطي» موجزاً بالعربية عن «دار المنتخب العربي» في بيروت.

يعتبر بروديل ركن المدرسة التاريخية الفرنسية الحديثة. وكان قد شرع في إصدار مجلة «أنال» Annales(حوليات) الشهيرة في العام ١٩٤٦، قبل أن يُنتخب أستاذاً في «الكوليج دو فرانس» عام ١٩٤٩، ورئيساً للقسم الرابع في «مدرسة الدراسات العليا» الفرنسية عام ١٩٥٦. وفي العام ١٩٦٢ أسس «بيت علوم الإنسان» في باريس، لينتخب في شتاء عمره عضواً في «الأكاديمية الفرنسية» تقديراً لأعماله. فإلى «المتوسط والعالم المتوسطي...» وضع بردويل مؤلفاً موسوعياً آخر بعنوان «الحضارة المادية، الاقتصادية والرأسمالية من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر»، الذي استغرق منه انجازه ربع قرن من عمره. وبعيد وفاته صدر له مؤلف ثالث بعنوان «الهوية الفرنسية».

التمييز أو الفصل بين هذا المؤلف وبين الشخصية التاريخية الفريدة للمتوسط. وهي الشخصية التي قام بروديل برسم سيرورات تشكلها وآنبنائها وحدة متماسكة تتألف عناصرها من مشاهد طبيعية وحيوات مجتمعات وحضارات واقتصادات متنوعة ومتعددة. وذلك للكشف عن كيفية تشكل البحر المتوسط مركزاً للعالم القديم الذي ظل آلاف السنين يعيش على وقع وتائر هذا البحر ونبضه، وللكشف تالياً عن العوامل والظروف التي آلت إلى انقباض «العالم المتوسطي» وانسحابه شيئاً فشيئاً إلى هامش التاريخ الكبير ابتداءً من نهاية القرن السادس عشر الذي جعله بروديل منطلقاً لعمله التأريخي.

استبدل بروديل في عمله هذا، التاريخ ـ الحدث (أي منهج التأريخ التقليدي القائم على السرد التعاقبي للأحداث) بالتاريخ ـ المشكلة، سعياً منه للإحاطة بوقائع الاجتماع البشري كلها وبتعدد الأزمنة التاريخية وتفاوتها في الزمن الواحد. وقد وُضع بروديل كثرةً من الأسئلة في أساس تناوله للتاريخ المتوسطي. من هذه الأسئلة: ما هو المتوسط، ما هي سيرورة تشكله وحدة تاريخية، ما هي حدود العالم المتوسطي وحدود الحيز الجغرافي الذي تطاله شباك تاريخه وتحركه، وماذا حلَّ بالمتوسط في القرن السادس عشر، أي في بداية العصر الحديث، وكيف انتقل مركز العالم من المتوسط إلى الشمال؟

يقوم التأريخ البروديلي على تمفصل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي والجغرافي والديمغرافي... ليكون التأريخ دائماً على منتصف الطريق، حيث تتقاطع وتتكامل علوم الإنسان كلها. وإذا كان دوركهايم قد سعى لإنشاء علم اجتماع شامل وتنبأ بقدوم يومٍ تشرف فيه الحدود بين التأريخ وعلم الاجتماع على الامحاء، فلا شك في أن بروديل هو أول من جمع مختلف علوم الإنسان بمناهجها وأدواتها في مقاربة واحدة شاملة. ثم إن هذا التاريخ الشامل ليس جمعاً لتواريخ البلاد والأقاليم المتوسطة من أوروبا إلى شمال أفريقيا فالشرق الأوسط، بل هو تاريخ تفاعل هذه البلاد والأقاليم وتداخل مستويات اجتماعها البشري وتكاملها. والعالم المتوسطي البروديلي هو حيز ـ حركة يتنقل البشر في أنحائه وجهاته، فضلاً عن انتقال المواد والسلع والموض والأفكار والتقنيات والحروب

والأوبئة. فشبكة المواصلات على أنواعها وشبكة المدن المتوسطية كانتا تحتلان موقع القلب من تاريخ المتوسط وحضارته منذ الفينيقيين واليونان والرومان حتى الإسلام وبداية العصر الحديث في أوروبا. والنشاطات التجارية كانت تخترق حدود الإمبراطوريتين العثمانية والإسبانية، كما كانت تخترق حدود الحضارات التي كانت تتقاسم العالم المتوسطي: الحضارة الإسلامية التي كانت متمركزة حول اسطمبول، واليونانية التي رزحت تحت سيطرة الأتراك، والمسيحية الكاثوليكية التي كانت متمركزةً حول فلورنسا وروما. وإذا كان الإسلام والمسيحية يتنازعان السيطرة على المتوسط ويتحاربان على امتداد الخط البحري الذي يفصل المتوسط الشرقي عن حوضه الغربي، فإن البواخر والتجار والسلع لم تكف أبداً عن اختراق هذا الخط وعبوره.

ومما لا شك فيه أن فرادة بروديل تقوم على كشفه عن البنى التحتية للتاريخ البشري، من دون أن يعني هذا أنه مؤرخ لما فات وانقضى، بقدر ما هو مؤرخ لحياتنا الحاضرة، بما فيها من وقائع خرساء تصل إلينا من أزمنةٍ سحيقة القدم وتعيش معنا بوتيرة على حدود الصمت والثبات.

الصحاري والمتوسط الأصغر

من هذه الوقائع الخرساء التي أرّخ لها بروديل في «متوسطه»، نحاول هنا أن نلم شتات ما تضمنه مؤلفة المذكور حول الحياة البدوية في عالم المتوسط. لكن قبل أن نقوم بلمِّ هذا الشتات علينا أن نشير إلى أن بروديل لم يتطرق إلى التأريخ للحياة البدوية إلا في حدود ما لهذه الحياة من صلة عضوية بالحياة المتوسطية في مستوياتها المتعددة.

يرى بروديل أن هناك متوسطين اثنين يشكلان دائرتين مركزهما البحر وتحتوي الكبرى منها الصغرى.

ـ الدائرة الأولى هي المتوسط الأصغر الذي يمتد على سواحل البحر التي تشكل عوالم متشابهة تفصل بينها مسافات طويلة من اليونان إلى إسبانيا، ومن إيطاليا إلى شمال إفريقيا، ومن هذه الأخيرة إلى الساحل السوري؛ وهي عوالم ـ

بلاد، بالرغم من طول المسافات التي تفصل بينها، تتنفس كلها من الرئة نفسها وتتبادل الرجال والمنتجات والأفكار، وتشكل حيزاً لالتقاء البشر وتمازج التواريخ. وتقوم في أصل هذه الوحدة الإنسانية وحدة فيزيائية ومناخية وفي المشاهد وأنماط العيش، لا يمكن أبداً أن تكون وحدة ديكورية. فها هوذا شريط الزيتون الضيق يمتد بمحاذاة البحر وخلفه الجبال التي تشكل حدود المتوسط الأصغر، ذي الوتيرة الحياتية الواحدة المرتكزة إلى وحدة المناخ، بينما يترامى المتوسط الأكبر، متوسط التاريخ، إلى ما بعد هذه الجبال، وصولاً إلى الصحاري والسهوب والسهول الواسعة.

ـ الدائرة الثانية هي المتوسط الأكبر أو متوسط التاريخ الذي تصل حدوده إلى البحر الأحمر والخليج العربي. إنه متوسط الأبعاد التاريخية والبشر والذي هو كناية عن حيز ـ حركة يمتد دورياً إلى أبعد من شواطىء البحر الداخلي وفي الاتجاهات كلها على نحو ما يمتد حقل مغناطيسي أو على نحو ما تنتشر إشعاعات ضوئية تنطلق من بؤرة ويتلاشى نورها شيئاً فشيئاً، من دون أن نستطيع رسم حدودٍ ثابتةٍ بين الضوء والظل.

في الدائرة الثانية، أي في متوسط التاريخ، تشكل الصحاري في الجنوب والشرق قطباً متوسطياً يناظره قطب آخر في الشمال والغرب هو السهول الغنية المترامية في الشمال الأوروبي. ومن هذين القطبين ـ الرئتين تتنفس الوحدة المناخية للمتوسط الأصغر: رئة الصحاري في الجنوب ورئة الأطلسي في الغرب. أما الحدود الجغرافية لهذه الوحدة المناخية فلا تتجاوز شريط الزيتون في كل من الساحلين الشمالي والشرقي من المتوسط وشريط النخيل في الساحل الجنوبي. ففي بداية كل صيف تهب الرياح الحارة من الصحراء الجنوبية وتجتاح البحر وتصل طلائعها إلى ساحل المتوسط الشمالي. وفي الشتاء تبتعد الصحراء ورياحها الحارة، فيتدخل الأطلسي برياحه الرطبة الباردة التي تجتاح المتوسط من الغرب إلى الشرق، فتتراكم الثلوج على الجبال وتجري السيول وتجتاح مياهها السهول وتفيض الأنهار. هكذا تصل مياه السيول والفيضانات أحياناً إلى حدود الصحاري، فتحول شوارع مكة إلى مجارٍ لمياه موحلة. لكن هذا التأثير للمتوسط الأكبر على المتوسط الأصغر لم

يكن أبداً يلغي الاختلاق بين هذين المتوسطين. فالمنتقل في حوض المتوسط وعلى شواطئه غالباً ما يجد نفسه أمام الأشجار والنباتات والمواد الغذائية ذاتها، فيما يشعر هذا المنتقل أنه غريب إذا تجاوز حدود المتوسط الأصغر واتجه نحو الفرات أو نحو الشمال في البلاد الواطئة أو نحو الصحراء. والصحراء في المتوسط تهدد التربة وتضيّق المساحات الصالحة للزراعة. ففي حين لم تكن نسبة الأراضي الزراعية في المتوسط الأوروبي تتجاوز ثلث مساحة أراضيه العامة في العام ١٩٠٠، فإن مساحة الأراضي الزراعية في الجهة الجنوبية المقابلة تنخفض وتتضاءل على نحو كارثي، كما تتضاءل وتندر الغابات التي تشكل عنصراً أساسياً في قيام القطاعات البحرية وإزدهارها. وفي القرن السادس عشر كانت الثروة الغابية المتوسطية قد استنفدتها على وجه التقريب حركة بناء السفن في القرون الغابرة. وليس من قبيل الصدفة أن تكون الأقاليم ذات النشاطات البحرية المزدهرة واقعة على الشواطىء الشمالية من المتوسط، لوفرة الغابات في جبالها، بينما يشكو الجنوب دائماً من قلة، لا بل من انعدام، الغابات فيه. ولولا الأخشاب التي كانت متوافرةً على نحو استثنائي في بجاية (شمال إفريقيا) لما أمكن لابن خلدون أن يتحدث عن بحرية ناشطة في القرن الثالث عشر والقرن الذي يليه. واستنفاد الغابات في جبال لبنان كان على الأرجح في أصل انحطاط الحياة البحرية على السواحل السورية. وفيليب لومبار يرى أيضاً أن أزمة الأخشاب كانت في أصل انحسار السيطرة الإسلامية عن المتوسط في القرن الحادي عشر. أما سيطرة العثمانيين على قسم كبير من البحر فكانت مرهونة بوفرة الغابات واتساعها حول البحر الأسود وبحر مرمرة وخليج أزمير، الأمر الذي أتاح لهذه الامبراطورية بناء أسطولها الضخم. لكن أوروبا، من جه آخر، لم تكن بدورها بمنأى عن أزمة الأخشاب، التي حملتها في القرن السادس عشر على الاستعانة بخشب الشمال لبناء أساطيلها.

إلى عامل ندرة الثروة الغابية في المتوسط الجنوبي والشرقي هناك عامل آخر يتمثل في قلة عدد سكانه. والرقم التقريبي لعدد سكان المتوسط كله في القرن السادس عشر هو ٦٠ مليون نسمة، ٣٨ مليون منهم في بلدان المتوسط الأوروبية و٢٢ مليون في البلدان الإسلامية، ومن ضمنها البلقان. وفي العام ١٨٥٠ قفز

عدد سكان المجموعة الأولى (الأوروبية) إلى ٧٨,٥ مليون نسمة وقفز عدد سكان المجموعة الثانية (البلدان الإسلامية) إلى ٥٠ مليون نسمة. أما في العام ١٩٣٠ فصار عدد سكان أوروبا المتوسطية ١١٣ مليون نسمة، وعدد سكان المتوسط الإسلامي ٨٣ مليون نسمة. وإذا عدنا إلى القرن السادس عشر لقياس الكثافة السكانية لوجدناها ١٧ نسمة في الكلم^2 الواحد وينخفض هذا الرقم إذا أدرجنا الصحاري في الحيز المتوسطي، فينجم عن ذلك قفار واسعة يساعد التمركز المديني والجفاف في اتساعها، ويجعلان من المناطق المأهولة واحات إنسانية متباعدة، تفصل بينها قفار شاسعة تزداد وتتسع كلما اتجهنا نحو الشرق والجنوب، حيث الصحارى الحقيقية في كل من آسيا وشمال إفريقيا، وكانت تلك الصحاري والقفار مرتعاً للحيوانات البرية المفترسة. لكن انخفاض الكثافة السكانية في الشرق الإسلامي من المتوسط عنها في الغرب الأوروبي، فضلاً عن اتساع المساحات المقفرة والصحاري في كلٍ من الشرق والجنوب المتوسطيين، جعلت من هذين الأخيرين خزاناً لتربية المواشي وزادت من قوته العسكرية. وما وقوف بلاد البلقان وشمال إفريقيا حصناً منيعاً في وجه السيطرة الأوروبية المسيحية إلا بفضل اتساع مساحاتها وكثرة الخيول والجمال فيها. فخلف الجيش التركي كانت الجمال تستكمل سيطرتها على شبه جزيرة البلقان لتصل إلى هنغاريا. وخلف حصون ڤيينّا كانت الجمال أيضاً تموّن جيوش سليمان القانوني عام ١٥٢٩. أما الخيول فكانت أحد عوامل قوة الإسلام ومحط دهشة المسيحيين الأوروبيين. فالخيول الأوروبية بالمقارنة مع الخيول الإسلامية كانت تبدو ثقيلة وعديمة المهارة ولا تستطيع الجري أمام خيول الأتراك.

باختصار كان عدد سكان أوروبا كبيراً ويفوق ما يحتاجون إليه من الخيول، بينما كان عدد هذه الأخيرة يفوق بكثير عدد السكان في الجهة الإسلامية المقابلة. وهذا اللاتوازن هو ما يفسر تسامح الإسلام واستقباله الناس الوافدين من كل جهةٍ وصوب إلى دياره الواسعة.

المتوسط بين الانتجاع والبداوة

كانت الطبيعة قد حضّرت على مدىً زمني طويل لإقامة هذه الازدواجية

بين قطبي متوسط الأبعاد التاريخية: القطب الأوروبي في الشمال والقطب الصحراوي في الجنوب. وهما قطبان يشكلان عالمين مختلفين يتواجهان على أصعدة عدة: الجغرافيا، والتاريخ، ونمط الحياة اليومية.

ولكي نرسم شخصية القطب الصحراوي للمتوسط التاريخي الأكبر يجدر بنا أن نميز بين نوعين من الحدود. هناك أولاً الصحاري الإفريقية والآسيوية الشاسعة والممتدة إلى مساحاتٍ هائلة في عمق كل من القارتين المذكورتين. وهناك ثانياً الحدود التي ترسمها أطراف هذه الصحاري في اقترابها من البحر حيث أقام الإنسان، ببطءٍ وعلى مدىً زمني طويل، شبكة من أشجار النخيل. والصحراء تلامس المتوسط من جهات ثلاث: الصحراء الليبية من الجنوب، والصحراء السورية خلف جبال لبنان، والصحراء الواقعة شمال البحر الأسود.

في هذه المساحات الصحراوية الشاسعة كانت القوافل تلتقي مع تجارة المشرق (التوابل والذهب) وتشتبك بها، ليس فحسب عند بوابات أساسية كمصر والشام حيث كانت تعبر في القرن السادس عشر تجارة المشرق كلها، بل أيضاً على تخوم الصحاري البعيدة التي كانت تنقل حياة البدو إلى السواحل.

آنذاك، أي في القرن السادس عشر، كان يلزم نهار واحد لاجتياز مسافة بين مدينتين متوسطتين، أما في المساحات الصحراوية المترامية على بعد آلاف الفراسخ من المتوسط، فكانت تلزم أسابيع أو أشهر للانتقال بين مدينتين. مثال ذلك الانتقال من نيجيريا إلى النيل الأعلى إلى البحر الأحمر فإيران فتركستان فالهند. لذا كان الانتقال الدائم للتجمعات واقتصادها والحركية الدائمة في نشاط المدن، فضلاً عن الضعف وتنقل القوافل، كان هذا كله كناية عن رد البَشر على عيشهم الموزع أو المنتشر في ذلك الاتساع الصحراوي المترامي. وإذا كانت الهجرة من القرى إلى المدن هي إحد خصائص مجتمعات القطب الأوروبي من المتوسط، فإن الرحيل عن المدن هو إحدى أهم علاقات تاريخ مجتمعات القطب ذي البلاد المتوسطية الجافة التي تشبه مساحاتها المترامية البحر، وليس للانسان فيها مكان وحضور إلا بوصفه مسافراً أو ظاعناً أو منتقلاً، كأنه في ذلك ضيف عابر لا يقيم إلا على نحو مؤقت. فاليابسة في القطب الصحراوي من المتوسط ليست إلا بحراً

بلا مياه. وهو بحر أكثر اتساعاً من البحر المتوسط بأضعافٍ مضاعفة.

هذه الواقعة الطبيعية ـ الجغرافية طبعت الاجتماع في المتوسط الأكبر بطابعها وجعلته ذا وجهين مختلفين متقابلين. فإذا كان مشهد الانتقال المنظم للقطعان والبشر يختفي شيئاً فشيئاً اليوم من أنحاء المتوسط كلها، فإنه، أي الانتقال، كان بالأمس القريب وعلى امتداد القرون، علامةً أساسية في حياة المجتمعات المتوسطية كلها: الانتقال الذي يلابس الانتجاع في القطب الأوروبي الشمالي من المتوسط، والانتقال الذي يلابس البداوة في قطبه الصحراوي الجنوبي المقابل.

والانتجاع هو تلك الحياة الرعوية المنظمة التي كانت تنتقل بين مراعي الشتاء في السهول والمناطق المنخفضة ومراعي الصيف على المرتفعات والجبال. وآثار هذه الحركة ما تزال بادية في الطرق التي كانت تسلكها القطعان ويقترب عرضها من ١٥ متراً. وفي أنحاء أوروبا المتوسطية كلها تبدو هذه الطرق كالندوب على جسم الإنسان، وتستخدم لها أسماء محددة وخاصة في كل منطقة ولغة. وحركة الانتجاع هذه جاءت نتيجة لتطور مديد ولتقسيم مبكر للعمل، أديا إلى ظهور فئة الرعيان المنفصلة، ليس عن الفلاحين فحسب، بل عن مجمل أوجه الحياة الاجتماعية. إنها فئة كانت تعيش خارج القواعد العامة، تنتقل بين مراعي المرتفعات الجبلية والسهول، وينظر إليها الفلاحون وسكان المدن بخوف واحتقار، كأنها فئة من البرابرة أو من أنصاف الوحوش. لذا يبدو الانتجاع شكلاً من أشكال التمأسس الذي أطلقته حياة زراعية متقلبة لا تستطيع تحمل أعباء الحياة الرعوية، كما لا تستطيع أيضاً التخلي عن منافعها، الأمر الذي آل إلى قيام عالم رعوي منفصل عن المجتمع.

أما البداوة، التي هي الشكل الأقدم للحياة الرعوية، فكانت منتشرة في القطب الجنوبي من المتوسط الذي حال القحط والجفاف دون قيام زراعة قوية فيه. فبينما سمح امتلاك المتوسط الشمالي المتميز بقيام حياة زراعية قوية وكثافة سكانية واقتصاد نشيط بسجن الحياة الرعوية فيه داخل حدودٍ صارمة، فإن البلقان والأناضول وشمال إفريقيا كانت مسرحاً لبداوة أو لشبه بداوة حتى سمح كل من نمو

الحياة الزراعية والنمو الديمغرافي فيها بكسر الحياة البدوية وتقليصها. وهذا ما حدث مؤخراً في المشرق وشمال إفريقيا.

اندفاعتان بدويتان

هو التاريخ الذي لعب دوراً أساسياً مرتين على الأقل في استمرار البداوة وتجددها في المتوسط الجنوبي والشرقي اللذين شهدا اندفاعتين بشريتين قويتين استمرتا قروناً وشكلتا غزوتين هائلتين أقامتا انقطاعين عميقين. انطلقت الغزوة الأولى من صحراء شبه الجزيرة العربية الحارة مع الإسلام ابتداء من القرن السابع، وانطلقت الغزوة الثانية من صحراء آسيا الباردة مع الأتراك ابتداء من القرن الحادي عشر. وقد أدى هذان الحدثان إلى استمرار البداوة ونموها في كل من شبه جزيرة البلقان وآسيا الصغرى والصحراء السورية وشمال إفريقيا. فمع الغزوة الأولى (الإسلام) انتشر الجمل من سوريا إلى المغرب، بعد أن كان قد وصل إلى المتوسط من شبه الجزيرة العربية في القرن الأول للميلاد. إنه جمل المناطق الصحراوية الحارة الذي لا يستطيع تحمل البرد والسير في المناطق الجبلية. ومع الغزوة الثانية انتشر صنف آخر من الجمال في آسيا الصغرى وبلاد البلقان، إنه وحيد السنام القادر على تحمل البرد والسير في الجبال.

ولمعرفة بيئة هذين الجملين أهمية بالغة، إذ إن لكل منهما مجاله الطبيعي المحدد. فإذا كان الفتح العربي قد فشل في آسيا الصغرى ولم يأخذ مداه في بلاد فارس، فلأن الجمل الآتي من شبه جزيرة العرب لم يكن في مجاله الطبيعي. وهذا واحد من العوامل التي أدت إلى إهمال العرب للمناطق الجبلية التي احتمت فيها الأقليات وتحصنت: الموارنة والدروز في جبال لبنان ما بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر. والقبيليون (البربر) في جبال شمال إفريقيا في القرنين العاشر والحادي عشر.

هكذا انتشرت البداوة في المناطق المنخفضة بعد الفتح العربي كفيضان هائل أحاط بالمناطق الجبلية. أما الغزوة الثانية (العثمانية) بجمالها المعتادة على البرد وتسلق المرتفعات فلم توفر جبال آسيا الصغرى، والبلقان بدرجة أقل، من انتشار

البداوة التي وصلت إلى أعالي الجبال.

إلى هذا التاريخ يضاف فصل أساسي عن التناقض المتجدد أبداً بين التوطن والبداوة. فبين القرن الثالث عشر والقرن الخامس عشر توطد الاستقرار في آسيا الصغرى واستبعدت البداوة نحو الهوامش شبه الخالية. أما في القرن السادس عشر فلم تتوقف الدولة العثمانية عن فرض الانضباط على البدو والحكم على المخالفين منهم بالعمل في المناجم والتحصينات والنفي إلى جزيرة قبرص، بعد سيطرة الأتراك عليها سنة ١٥٧٢. لكن البداوة التي قُضي عليها في غرب الأناضول عادت وانتعشت في الشرق مع زحف التركمان الذين حاولت الأمبراطورية العثمانية تحضيرهم في القرنين السادس عشر والسابع عشر، فهربت القبائل الشيعية منهم في اتجاه بلاد فارس التي كانت في صراع دائم مع الأتراك. وحتى قرننا الحالي كان ما يزال يصل إلى كل من حلب ودمشق بدو تركمان تسعى الحكومات إلى تحضيرهم. أما الفراغ الذي خلفه البدو وراءهم في شرق الأناضول، فقد قام الأكراد بملئه من جديد في القرن التاسع عشر، بعد أن مكثوا طويلاً في جبالهم. إنها هجرات جديدة تشير إلى دورات متعاقبة للحياة البدوية. دورات أو حركات شديدة البطء تطلب اكتمالها قروناً وقروناً.

حركة انتقال البدو

غالباً ما كانت بلاد القطب الجنوبي من المتوسط نهباً للفقر والعوز. أما الموسرة منها، مثل بغداد، فكم من فقير فيها كان يحلم كعامة ألف ليلة وليلة برغيف من خبز الحنطة وقليل من الزبدة، إذا لم يقتنع برغيف من الشعير. إنها بلاد جرداء قاحلة، لا مياه فيها ولا شجر ولا خضرة، إلا في تلك البقع القليلة المسماة «مراعي». وكم كانت نادرة وثمينة الخزانات المصنوعة من خشب الأرز في بلاد الإسلام. فبينما كانت الأزمة في المتوسط تتمثل في الحاجة إلى الأخشاب لصناعة السفن، كانت تلك البلاد تعاني من مشكلة تدبر أواني المطبخ المصنوعة من الخشب الذي كانت المدن الغنية تشكو من حاجتها إليه. وفي تلك المساحات الشاسعة من الفراغ الموحش والمعادي، لم يكن الرعب فيزيائياً فحسب، بل

بيولوجياً أيضاً، الأمر الذي كان يحتم على البشر العيش في جماعات متلاحمة في الواحات، حيث الصحراء هي موطن الحمار والحصان والجمل الذي كان له الدور الأول في ذلك الوسط، بينما كان الإنسان كناية عن طفيلية تابعة له. فكم كانت الحياة قاسية وصعبة في تلك الصحاري التي لم تَخْلُ الحياة فيها من السحر الذي يتمثل في شعرها وأوهامها.

كان البدو المتنقلون في تلك القفار الشاسعة يصارع بعضهم البعض الآخر على الآبار والمراعي. لكن غزوهم للحضر كان أسهل عليهم، لأنهم كانوا متى أرادوا يصلون إلى أبواب كل من حلب والاسكندرية والقاهرة. أما الحياة الداخلية البدوية الصحراوية فكانت تكشف عن تنظيم وتراتب وممارسات معقدة، وعن تشريع حقوقي (عرف) مذهل. وذلك على عكس ما كانت عليه صورتها الخارجية التي تبديها كغبار تبدده الرياح.

في هذا السياق يمكننا أن نميز بين صنفين من البدو: البدو الجبليون الذين كانوا يتنقلون في دوائر ضيقة مساحاتها، وكبار البدو الذين كانوا يتنقلون في مساحات واسعة ليصلوا إلى شواطىء البحر. فهؤلاء كانوا يبدأون رحيلهم في كل سنة من الجنوب إلى الشمال، قاصدين المراعي التي كانت تيبس نباتاتها بالتدريج من الجنوب إلى الشمال. هكذا كان طلبهم للخضرة يقودهم إلى شواطىء المتوسط، حيث لم تكن حواجز الحضر منيعةً بوجه هجماتهم، من آسيا الصغرى حتى شمال إفريقيا، مروراً بسوريا. ففي تشرين الثاني من العام ١٥٧٣ استطاع دون جوان النمساوي أن يسيطر على تونس، لأن البدو كانوا قد رحلوا عن شواطئها. وفي آب من العام ١٥٧٤ لم يستطع الأتراك السيطرة على تونس نفسها إلا لأن البدو كانوا إلى جانبهم. هكذا كانت حركة البدو الموسمية من السهوب إلى شاطئ البحر ومن الشاطىء إلى السهوب إحدى علامات تاريخ المتوسط ودورة من دورات حياته.

وإذا كان البدو يتنقلون بحثاً عن المراعي، فإنهم من وجه آخر كانوا بحاجةٍ إلى أرضٍ يحرثونها ويستنبتونها وإلى مدن يجعلونها مراكز لتموينهم وقواعد لنظمهم السياسية. فقبيلة الشيبة، مثلاً، نجحت في السيطرة على مدينة القيروان التونسية

والإقامة فيها في أثناء انحطاط أسيادها المحليين في الخمسينات من القرن السادس عشر. لكن الدولة التي أقامها البدو في تلك المدينة ما لبثت أن توارت في العدم وكأنها ولدت من عدم. ومثل هذه الواقعة كررها التاريخ آلاف المرات وفقاً للشروط نفسها.

وللبدو أيضاً غزواتهم الصامتة، على نحو ما حدث في الأناضول في نهاية العصر الوسيط. ففي المدن الأناضولية التي كان يسكنها الروم ثار الفلاحون واعتنقوا الدين الإسلامي، فانضم البدو إلى صفوفهم، الأمر الذي أدى إلى سيطرة الإسلام على هذه المدن المسيحية، وإلى بدء البدو في التخلي عن بداوتهم واتباع حياة حضرية متوسطية بسيطة. وهذا دليل على أن علاقة البدوي بالحضري المقيم لم تكن تتسم بالعداوة فقط ولا تقوم على الصراع الدائم. فالبدو غالباً ما كانوا يُستدعون إلى السواحل لاستخدامهم في الزراعة. لكن مجيئهم غالباً ما كان يتزامن مع إنهاك خصوبة تربة الأراضي الزراعية ومع حاجتها للراحة. كأن العدوين، البداوة واالتوطن، كانا يتكاملان. فالبدوي كان يستفيد من نقاط ضعف المقيم الذي كان بحاجة إلى البدوي. ومن دون هذا «التواطؤ» بين الحضارتين، حضارة البدو وحضارة المقيمين، لا يمكن فهم شيء من هذه المأساة المترجرجة. لقد كان البدو في شمال إفريقيا يساعدون أحياناً على توفير أسباب استتباب نظام ما، ويتحالفون حيناً مع المدن ضد الغازي التركي الذي لم يستطيعوا الانتصار عليه بسبب استخدامه لسلاح المدفعية. وببروز هذا السلاح تم، في نهاية القرن السادس عشر، طرد البدو من اللعبة التي كانوا طرفاً فاعلاً فيها. هذا ما حصل أيضاً لبدو القازان على نهر الفولغا، وللمغول في شمال الصين، وللبدو في الشرق الأوسط.

الصحراء، الواحات، القوافل

في الحديث عن العلاقات التجارية في البادية يجدر، أولاً، التمييز بين التاريخ العادي للبدو وبين رحلات القوافل التجارية لمسافات طويلة على تخوم الصحاري. كانت هذه الرحلات الطويلة تصل المتوسط بكل من الشرق الأقصى

والسودان. والاختلاف بين تاريخ البدو وتاريخ هذه الرحلات هو كالاختلاف بين الملاحة البحرية والقرصنة في المتوسط. فالقوافل هي من أعمال التجار، أي المدن ذات الاقتصاد المزدهر على مستوى عالمي. والمدن هذه كانت تعمل دائماً على توفير الحماية لقوافلها التجارية من هجمات البدو النهابين. لذا كانت قوافل التجار والحجاج الضخمة المنطلقة من القاهرة إلى مكة تسير بحماية ٦٠٠ جندي. ومن المحتمل أن تكون التجارة الصحراوية (تجارة الملح والعبيد والنسيج والذهب) قد نمت وازدهرت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، من دون أن تقوى الاكتشافات البحرية البرتغالية على ايقافها إلا في غضون القرن السابع عشر. والطريقان اللتان كانت تسلكهما هذه التجارة في كل من مصر وسوريا هما المعروفتان بطريقي الذهب والتوابل اللتين كانت القوافل التجارية للشرق الأوسط تستخدمهما: الأولى طريق دمشق والقاهرة المتجهة إلى مكة، والثانية طريق حلب ودجلة. أما الفرات فقد تم إهماله لأنه لم يكن صالحاً للملاحة إلا حين جعل الجيش التركي يستخدمه كخط مواصلات عسكرية. والطريقان المذكورتان كانتا تتجهان إلى المحيط الهندي. الأولى مروراً في البحر الأحمر والثانية مروراً في الخليج الفارسي. وهذه الطرق كلها كانت مستخدمة منذ القرن الثاني عشر، بوصفها صلة الوصل بين البحر المتوسط والمحيط الهندي اللذين كانا يشكلان كائناً واحداً بسبب قصر المسافة بين الساحل السوري المتوسطي وبين الخليج الفارسي. والقوافل التجارية في اجتيازها هذه الطرق كان عليها أن تستخدم وسائل كلٍ من النقل البري والبحري في آن معاً. لكن علينا ألّا ننسى الجهد المضني الذي كان يتطلبه اجتياز حاجز الصحراء، للوصول إلى إقامة صلة بين اقتصادين مستقلين التقت مصلحتهما على تبادل الذهب والتوابل: الذهب الذي كانت تحتاج إليه بلاد المحيط الهندي، والبهار الذي كانت تحتاج إليه بلاد المتوسط. ومثل هذا الجهد المضني يحملنا على القول إن تجارة المشرق كانت غير «طبيعية»، خاصة إذا فكرنا بالجهد الكبير الذي كان يتطلبه نقل شوال البهار من الهند إلى حلب ومن هذه الأخيرة إلى البندقية.

لكن الصحراء، التي يبدو مشهدها للغربي مساحات مقفرة يتنقل فيها بين

البدو والقطعان، لم تكن مساحة نقل فحسب. فهناك المدن الثابتة والأراضي الخصبة التي تحيط بالمدن. مدن وأرض خصبة أقامها سكان الشرق الأوسط منذ آلاف السنين. فمصر في القرن السادس عشر كانت ضفتين مزروعتين، وبلاد ما بين النهرين كانت تحوي ٢٥ ألف كلم[٢] من حدائق الأشجار المثمرة. وعلى الرغم من أن مثل هذه المساحات تبدو ضيقة على الخارطة، فإنها كانت مراكز لتراكم السكان الذين أقاموا مدناً زراعية على ضفاف قنوات الري. مدن ذات قوانين دقيقة وأنظمة استبدادية صارمة (لنتذكر حمورابي). فمثل هذه المدن كانت أشد استبداداً من الاستبداد الذي عرفته سهول المتوسط، بالرغم من تشابههما في حاجتها لاستهلاك أعدادٍ لا تحصى من البشر وجهودهم. فالواحات الصحراوية، قبل أميركا، عرفت استعباد السود. ومصر حافظت طوال حياتها على علاقة وطيدة مع السودان، لذا يبدو دم السود واضحاً في بشرة فلاحي النيل. وبلاد ما بين النهرين كانت تستورد البشر من الجبال التي تحيط بها من الشمال والشرق. وحين يُقال إن الأتراك هم من قتلوا حدائق ما بين النهرين، ينسى القائلون الحقيقة التي يؤكدها التاريخ والتي تقول إن تلك البلاد تنقطع عن خزانها البشري الضروري لحياتها حين تنفصل انفصالاً تاماً عن إيران وتنقطع عنها.

كانت بلاد ما بين النهرين في حاجة دائمة إلى حماية نفسها من أخطار هجمات البدو عليها. فما من قرية في تلك البلاد إلا وكانت تمتلك برجاً لمراقبة غارات البدو وهجماتهم المتوقعة. ومما لا شك فيه أنه من قلب تلك الواحات الصحراوية الخصبة ولدت «الحضارة الشرقية» التي ليس الإسلام إلا استعادة لها بعد مرور آلافٍ من السنين على ولادتها. ففي تلك الواحات ـ «الجنات» الأولى في الأرض استخدمت أولى الأدوات الزراعية وأقدمها، من دون أن يعني هذا أن تلك الأدوات كانت القاعدة التي نهض عليها الشرق. فعلى العنصرين المتعارضين والمتكاملين في آنٍ معاً (الترحال والإقامة) ارتكزت الحياة الصحراوية التي أصر الجغرافيون على اعتماد أحد هذين العنصرين قاعدة لقراءتها وتفسيرها. فما بالهم لم يدركوا أن البدوي كان يستفيد من ثبات المدن، وأن المدن كانت تستفيد من تظعن البدوي وترحاله! أليس الاثنان عنصرين في تاريخ أشمل من تاريخ كل واحدٍ

منهما؟ إنهما العنصران الضروريان لفهم التاريخ الكبير والفريد للاسلام، ابن الصحراء.

حضارة الإسلام

الصحراء كالبحر، حركة، كما هو الإسلام أيضاً حركة. وكما هي المساجد والمنارات والمآذن والأسواق من صلب حضارة الإسلام، فإن الصحراء بقوافلها وحركيتها هي أيضاً من صلب حضارته، فضلاً عن أنها ركيزة تجانسه البشري. فلنتجنب السهولة، إذن، ونقول إن الإسلام هو شمول ما تعبر عنه الصحراء من تعدد في عوالم الواقع البشري وفي أوجه نشاطه: لقد عاش الإسلام، وهو كناية عن طريق طويلة من الأطلسي إلى الهندي، على كبريات القوافل التي كانت تعبر دياره الواسعة، وعلى المناطق الساحلية بحاضراتها المنتشرة على كلٍ من المتوسط والمحيط الهندي والبحر الأحمر، وأخيراً على احتمال تحقق تلك الفرصة التاريخية التي أتاحت، ابتداءً من القرن السابع، إمكانية توحيد العالم القديم الواقع بين عوالم كثيفة السكان: أوروبا، إفريقيا السوداء، والشرق الأقصى.

لا شك في أن منبت الشخصية الحضارية الإسلامية هو صحراء شبه الجزيرة العربية. لكن مدى هذه الشخصية أو أفقها هو البلاد التي افتتحها الفرسان العرب بسهولة فائقة. فقلب الإسلام هو الحيز الضيق الممتد بين كل من مكة وبغداد ودمشق والقاهرة، ولكنه أكد نفسه كوريث فعلي للشرق الأوسط وتراثه، حيث امتد قديماً العالم القرطاجي الذي كان مهيئاً لاستقبال حضارة الإسلام أكثر من تهيوئه لتمثل القانون الروماني. وعلى الرغم من أن الدين يشغل مركز القلب من كل نسقٍ ثقافي، فإن الحضارة ليست ديناً فحسب. لذا هضم الإسلام، فضلاً عن تراث النبي إبراهيم، ثقافات وسلوكاتٍ وعاداتٍ تعود إلى أزمنةٍ سحيقة القدم. وكما هي الحضارة الغربية مشتقة ومطعمة أو من الدرجة الثانية، كذلك هو الإسلام حضارة اشتقاق وتطعيم وتوليد ومن الدرجة الثانية أيضاً. وربما الحضارة الصينية وحدها حضارة من الدرجة الأولى.

قام الإسلام بذلك كله ليمتلك السيطرة على المعابر الضرورية لحياته،

وليتصدى لوظيفته الهامة بوصفه وسيطاً لا يعبر شيء في دياره من دون إرادته. لقد كان الإسلام ذلك العالم الذي ستسيطر عليه أوروبا المنتصرة على مستوى الكرة الأرضية كلها، فيما بعد. لكن علينا ألا ننسى نقاط الضعف التي تعتري ذلك الجسم الإسلامي الضخم: الحاجة الدائمة إلى البشر، عدم اكتمال الوسائل التقنية، الصراعات الداخلية التي كان الدين حجتها بقدر ما كان سببها، صعوبة السيطرة على الصحراء الباردة التي كانت مصدراً للخطرين التركي والمغولي، وأخيراً ذلك الضعف الناجم عن وقوع الإسلام أسير نجاحاته السهلة وإحساسه بأنه مركز العالم وبأنه وجد حلولاً ناجعة لكل شيء من دون أن يجتهد سعياً وراء ابتكار غيرها. فالبحارة العرب، مثلاً، كانوا يعرفون كلاً من جهتي إفريقيا الأطلسية والهندية، وكانوا يقدرون أيضاً أن المحيطين المذكورين متصلان عند سواحلها الجنوبية، لكنهم قنعوا بمعرفتهم ولم يهتموا باستكمالها وتوظيفها في عمليات الملاحة البحرية.

في القرن الخامس عشر انطلق إسلام آخر: إنه الإسلام التركي «الشمالي» ذو العاصمة البحرية الواقعة في أوروبا. هذا الإسلام الجديد أصر على «تحضير» البدو إصراره على التنظيم وفق مبادىء أوروبية. وهذا ما أدخل السلاطين العثمانيين وولاتهم في صراعاتٍ من غير طائل، أخفت عن بصيرتهم الأهداف الحقيقية التي كان عليهم السعي في طلبها: توقفوا عن متابعة حفر قناة السويس الذي بدأوه في العام ١٥٢٩، وبدل أن يحسموا صراعهم مع البرتغاليين في سنة ١٥٣٨ تراجعوا إلى صراعات داخلية مع الفرس، استنكفوا عن السيطرة على الفولغا السفلى وعن فتح طريق الحرير في الشمال، استرسلوا في إشعال حروب في المتوسط، فيما كان يتحتم عليهم الخروج منه.. هكذا أضاعت الأمبراطورية العثمانية فرصاً كثيرة لا تفوت.